هرمنيوطيقا انصهار الآفاق عند "هانس جورج غادامير"

هشام معافة

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية
جامعة قسنطينة 2- عبد الحميد مهري
الجزائر

ملخص

ما نرومه، من هذه الورقة، هو فهم دلالة الفكرة "الغادامیریة" عن "انصهار الآفاق"، إذ تُعدّ العبارة من الأطروحات المركزية حول الفهم والحقيقة ؛ فهي تلعب دوراً مهماً في الجدل حول العلوم الإنسانية، لكن دون أن يفهم معناها فهماً صحيحاً. لذلك فإن مهمتنا الحالية أن نُوضح المضمون الفعلي لمعنى العبارة، فضلاً عن تنضيد الصعوبات التي تكتنفها وما هو مسكوت عنه بخصوصها.

الكلمات المفتاحية: الفكرة "الغادامیریة"، "انصهار الآفاق"، العلوم الإنسانية.

Résumé

L'objet du présent article est de tenter d'éclairer l'idée gadamérienne d'une « fusion d'horizons » *« Horizontverschmelzung ».* Cette formule compte parmi l'une des thèses de Gadamer les plus centrales sur la compréhension, les sciences humaines, l'histoire, le langage et la vérité. L'idée d'une « fusion des horizons » tient donc un rôle important dans les débats sur les sciences humaines, mais sans que son sens ne soit toujours maîtrisé avec justesse. Dans ce qui suit, j'aimerais me pencher sur la signification et la portée de cette idée, mais aussi sur ses difficultés et ses " silences ".

Mots clés: L''idée gadamérienne, Fusion d'horizons , Sciences humaines.

مقدمة

شَكَّل مصطلح **" انصهـــار الآفـــاق "** « verschmelzung » « Fusion des horizons » أطروحة مركزية في تَوْصِيْفِ "غادامير" للفهم والعلوم الإنسانية والتّاريخ، فضلاً اللّغة والحقيقة. ويأتي توظيفه لهاته الاستعارة بمعنى شديد الخصوصية وإثارة للجدل، وهو أمر نتلمسه بوضوح في الضبابية والتّعتيم اللّذين مارسهما، وبقصد، على هذا المصطلح.

وبخلاف مفاهيم **"اللّعب" "le jeu"** و**"نشاطالتّاريخ" "Le travail de l'histoire"**، و**"المسافة الزّمنية" "Distance temporelle"** **والخبرة" "l'Expérience"**، لم يُضمِّن كتابه

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1، الجزائر 2015.

"الحقيقة والمنهج" فصلاً مخصوصاً مكرّساً لمناقشة عبارة "انصهار الآفاق"، بل أكثر من ذلك، لم يستحضرها إلا نادراً، في مناسبتين لكنهما موحيتان، وفي كلتا الحالتين استحضرهما بطريقة نوعاً ما لغزية وسرّية: فقد ظهرت العبارة، بداية، في نهاية الفصل الموسوم بـ**" مبدأ تاريخ التأثير" " Le Principe de l'histoire de l'action (ou influence)"** ، وبالتّحديد داخل سياق سُجالي: لقد عمد "غادامير" إلى توظيفها للرّد على من يَدَّعُون، مثل "دلتاي"، بأن مُهمَّة الفهم تتلخص في التّحرر من أفق الحاضر قصد **"الانتقال" "Transposer" "Sich Versetzen"**إلى أفق الماضي. وهذا ما يعترض عليه "غادامير"، إن الفهم ينبغي استكناهه، بالأحرى، كـ"انصهار للآفاق" بين الماضي والحاضر[1]. ولعلَّ العبارتين **"انتقال" "Versetzen"** و**"انصهار" "Verschmelzen"** تُعيناننا على تَبيُّن ما يقصد "غادامير" إلى منافحته والتّصدي له من وراء استخدامه لمصطلح انصهار الأفاق. إذ يجيء الفصل الذي خصّه لـ**"نشاطالتاريخ"** مباشرة في أعقاب الفصل الذي أفرده لبحث الخصوبة التي تتمتع بها المسافة الزمنية. وهذا أمر يتضمن شيئاً من التّهكم ونوعاً من الطرافة، لجهة أن مصطلح انصهار الآفاق يأتي بالتّحديد لامتصاص هذه المسافة الزمنية وجسرها. هذه الحقيقة يُطالعنا بها "غادامير" حين أكَّد أن المهمة التي يُناط بها الفهم أن يُنجز انصهاراً بين "الذات" و"موضوعها"، على نحو تَظْهر المسافة كما لو أنها مُلغاة سلفاً.أما المناسبة الثانية أين تُعاود عبارة انصهار الأفاق الظهور ففي نهاية الجزء الثاني من الكتاب، حيث يقول أن "انصهار الأفاق هو الانجاز الفعلي للغة"[2] ، معلناً، تبعاً لذلك، أن هذه الفكرة ستكون بمثابة المفتاح الذي سيقود تأملاته عن اللّغة خلال الجزء الثالث والأخير من الكتاب. ومَعْقِدَ الغرابة ههنا أن العبارة لم تُعاود الظهور مرة أخرى، ولم يستخدمها مطلقاً في هذا الجزء[3]. فما مدلول كلمة انصهار الآفاق؟

من الواضح أنها تُريد أن تقول، على لسان "غادامير"، أننا نفهم دائماً انطلاقاً من أفقنا لحظة ما نبحث عن فهم شيء ما، أو لحظة ما نبحث عن فهم أفق الآخر، لكن دون أن نعي ذلك بوضوح دائماً. فالفهم يُنْجِزُ إذاً انصهاراً للآفاق بين أفق المؤول وموضوعه، ويجعله فاعلاً، على نحو يتعذر علينا أن نُميّز تمييزاً واضحاً الأفق الذي يعود إلى المؤول أو الذي يعود إلى موضوعه. أما الميل الحديث المتزايد إلى الفصل بين آفاق متمايزة، بين مؤول وموضوعه، وبين حاضر وماض، ليس إلاَّ فصلاً مصطنعاً ووهماً أذاتياً حديثاً للفهم[4]. والمثال النّموذجي على ذلك هو الفهم التّاريخي، أين يتخذ فهم نص في الحاضر أو مُصَنَفٍ قديم، يتخذ شكل انصهار بين لحظتين، حيث يلتحم أفق الماضي بأفق الحاضر. وبهذا الاعتبار تأتي عبارة انصهار الآفاق، برأي **"بول فندفلد" "Pol. Vandevelde "**، كرفض لمناهج العلوم التي تدعي بقدرتها على إيجاد المعنى الأصلي في استقلال تام عن التراث[5]، وقد أسلفنا أن الفهم التّاريخي لا يُختزل إلى مجرّد إعادة بناء المعنى الأصلي للنّص، بل إن الفهم هو فهم للنَّص ذاته. ومشاركة المؤول في دعوى التأويل وتحديد موضوعه هي ما يُطلق عليه "غادامير" اسم انصهار الآفاق، أين ينطلق المؤول من وضعه الرّاهن محملاً بمتاعه التراثي، داخل ما يصطلح "غادامير" على تسميته بالتراث، لينقل ذاته تجاه النّص الذي انبثق

داخل أفق آخر من التراث. إن أفق المؤول يلتحم بأفق ما يؤوله لينتج أفقاً ثالثاً هو محصلة لانصهار بين آفاق التأويل، فلحظة ما نفهم يحصل انصهار بين أفاق المؤول والنص، على نحو يغتني التراث ويزداد ثراء لأن رابطة جديدة قد ترسّخت بين نص من الماضي ومؤول راهن[6]. وينبغي أن نلاحظ ، ونحن بصدد الحديث عن انصهار الآفاق، أن هذا الانصهار يتجاوز نطاق فهم الماضي إلى فهم الآخر وفهم الثقافات الأخرى، وبدرجة أكثر حدة في فهم الذات، لأنه من الصعوبة بمكان أن نُميز، في حالة الفهم الذاتي، من يفهم عما يفهمه.قبل أن نستبق الحديث عن مضمون مفهوم انصهار الآفاق في كتاب **"الحقيقة والمنهج"**، من الأقوم أن نشرع بدياً في تحليله انطلاقاً من معناه الجاري في اللّغة.

لنبدأ بمفهوم "الأفق" "**L'horizon**". من الواضح أن الأمر لا يتعلق ههنا بمصطلح فلسفي كلاسيكي، فالعبارة غير مألوفة في تاريخ الفكر الفلسفي، إذ لم يستخدمها كبار الفلاسفة من أمثال "أفلاطون" أو "أرسطو" أو "ديكارت" و"كانط" و"هيجل"، إنما هي عبارة حديثة نسبياً، والأرجح أنها ترجع إلى "هوسرل" و"دلتاي"[7].

يعني الأفق، في الاستخدام العادي للغة، الحدود الدّائرية لمجال الرؤية بالنسبة للناظر الذي يقف في المركز، فنقول مثلاً أن الشّمس تغرب في الأفق، كما يمكننا أن نتحدث أيضاً عن خط الأفق وعن آفاق قادرة على الانفتاح، بل أكثر من ذلك يُمكننا الحديث عن قدرتنا على توسيع آفاقنا، وبالجملة فإن كلمة أفق تحمل دائماً معنى شيء ما يربطه بمجال الرُّؤية والفهم، إذ لا يسعنا الحديث عن أفق داخل غرفة مغلقة أين يتعذر علينا رؤية ما يحدث خارجها.

من الأجدى أن نُنبه إلى أن مصطلح أفق يعني، برأي غراندان، في اللّغة الفرنسية خصوصاً، ما هو حاضر أمامنا، وبمعنى ما، ما هو موجود خارج الذّات عندما يتعلق الأمر بتحديد قيمة ما يمكن أن نراه من حولنا. من المهم بهذا الصدد أن نشير إلى أن المصطلح قد أُستخدم عادة، بمعناه الفلسفي الذي صار دارجا، كمكافئ لوجهة النّظر الشّخصية أو الذّاتية، فنقول مثلا أن كل واحد منا، أو أن جماعة من الأفراد، لديه أفقه، لنقصد بالعبارة أن لديه وجهة نظره الخاصة عن الأشياء. بيد أننا إذا ما دققنا جيّداً في المفهوم الفلسفي الشائع عن الأفق لتبينا انه قد انحرف قليلاً عن معناه، فالأقوم أن نقول أن الأفق هو ما نراه أو يتبدى لنا انطلاقاً من وجهة نظر معينة لا وجهة النّظر ذاتها. فحيثما نتسلق رعنا ما أو قمة جبل فإننا نستمتع بمنظر جميل عن الأفق، فوجهة النّظر ههنا ليست هي الأفق ذاته. هكذا يُمكننا أن نرى إذن أن مصطلح الأفق قد اجترح، في زماننا هذا، معنى ربما أكثر ذاتية، في حين أنه يريد أو يدل منذ البداية على ما يتجاوز الذاتية، أعني ما يُحيط بها[8].

إن هذا الاستخدام اللّغوي، الذي أتينا اللّحظة على ذكره، هو الذي أوْلاه "غادامير" عناية خاصّة حين أكد أن التنشئة والتربية تسمح لنا بأن **"نظفر بأفق" " gagner de l'horizon"**، يقول "غادامير": "إذا كنا نتمسك ههنا بمفهوم الأفق فلأنه يُعبر عن

الرّؤية السّامية الّتي ينبغي أن يتمتع بها من يريد أن يفهم. أن نجترح أفقاً يعني أن نتعلم كيف ننظر إلى ما وراء الأشياء القريبة منّا، ليس من أجل أن نهيم بأبصارنا عنها، بل من أجل أن نراها على نحو أفضل ضمن كل أوسع"[9]. من الواضح أن النّص يستحضر فكرة تجاوز وجهة نظرنا الخاصّة وهي وجهة نظر أكثر ذاتية.

أما كلمة **"انصهار" "Fusion" "Verschmelzung"**، على غرار كلمة أفق ليست مفهوما فلسفياً كلاسيكيا، فتأتي من الفعل **"Fondre" "Schmelzen" "صهر"**، وتعني أن ما ينصهر بشيء ما فإن ما ينصهر يختفي أو يتغير شكله ليصير سائلا. فهل هذا ما يحدث فعلا لحظة ما نتحدث عن انصهار الآفاق؟

يعني مصطلح انصهار أن شيئين ينصهران في شيء واحد، فـ**"الحداد" "Métallurgiste"** مثلاً، وندعوه أيضا **"لحام" "Fondeur"**، بوسعه أن يصهر قطعتي حديد أو ذهب أو فضة ليجعل منها سبيكة. وفي سياق أكثر روحية فإن كلمة انصهار تُستخدم بمعنى مألوف جداً في اللّغة الألمانية وهو معنى غير غريب عن "غادامير" الفيلولوجي، أعني الانصهار بين تراثين. ومؤدى هذا العبارة انه بمقدورنا أن نجمع بين تراثين داخل فكر واحد، على نحو يُمكننا من الحديث عن انصهار التّراث "الأرسطوطاليسي" و"الأفلاطوني" عند " توما الاكويني"، وأيضا عن انصهار التجريبية والعقلانية في فكر "كانط"[10].

ما يُهمنا أخيراً في استعراض المعنى اللّغوي لكلمة انصهار انه داخل عملية الانصهار تتحول الأشياء والتقاليد المنصهرة لتُخلي مكانها لشيء آخر، وكلنا نعلم أن فكرة **"التّحول" "Métamorphose" "Verwandlung"** ليست فكرة غريبة تماما عن التصور "الغادامير" للفهم. إن الفهم لديه هو أيضا مناسبة لمخاض جديد يوضح الطابع الفريد والحدثي للفهم، وكلمة تحول تفترضهما مسبقاً. لكن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا، هل هذا الانصهار هو دائما انصهار ناجح؟ وهل يحدث دون مخاطرة؟

قبل أن تصير فكرة انصهار الآفاق فكرة "غادامير" بامتياز كانت معروفة قبله بمعنى أكثر سلبية؛ ونحن نتحدث هنا عن انصهار الآفاق الذي يحدث عندما يُسقط شخص ما أفكاره الخاصة على ما يقصد إلى فهمه، وهذا ما يحدث مثلا حينما نقصد إلى فهم أفلاطون أو أرسطو انطلاقا من الأحكام المسبقة الخاصَّة بالفلسفة المعاصرة، وان ندركها كنظرة **"شاملة" "Holisme"** سواء كانت واقعية أو مثالية. فحيثما نتأوَّل الماضي انطلاقاً من الحاضر فإننا نتعرض لما يُمكن أن نسمّيه "انصهاراً سيئاً للآفاق" **"mauvaise fusion des horizons"**، بالمعنى الّذي يجعلنا نَنْأى عن سماع ما يقوله لنا النَّص أو الآخر، ومن ثم فلا نُصغي إلاَّ ما نريد، نحن، أن نسمعه فحسب. وعلى هذا النَّحو يتحول انصهار الآفاق إلى شيء ما شبيه بـ"اضطراب الآفاق" **" confusion des horizons"**. دون شك، يُعدّ هذا النّمط السلبي من انصهار الآفاق الأكثر ألفة بالنسبة إلينا، وغالبا ما نقع ضحية لتأثيره دون أن نعي ذلك؛ فهو معنى نشط وفاعل مسبقا في اختيارنا للنُّصوص الّتي نُفسرها، فنحن نميل أكثر إلى ذكر نصوص "أفلاطون" أو

"كانط" التي تبدو لنا راسخة، ولكن قلما ما نذكر نصوصهما القديمة المقتبسة من القوانين ومذهب الفضيلة، أي المسائل الّتي لا تُوائم ذوقنا الحاضر.

لا نُجانب الصواب إذا قلنا أن التأويلية الكلاسيكية (الرومانسية) قد جاءت بالتحديد كثورة على هذا الانصهار السيئ للآفاق، إذ لم يفتأ "شلايرماخر" و"دلتاي" يُناديان دون توقف أن المهمة التي تنهض عليها التأويلية هي محاربة النّزعة الذاتية والنسبية في تأويلاتنا. وهذا سبب إضافي يعزز الاعتقاد لدينا أن التأويلية الكلاسيكية تَوَجُّه مناهض لانصهار الأفاق، حتى إن لم يكن المصطلح معروفا آنذاك، فإن مقاصدها كانت تميل نحو اجتثاث هذا الانصهار واقتلاعه من جذوره قدر الإمكان.

هذا الموقف السلبي من انصهار الآفاق الذي يبحث "غادامير" عن التشكيك فيه ومنافحته وهو بصدد عرض تصوره عن التأويلية الفلسفية في **"الحقيقة والمنهج"**. فبرأيه تقود هذه النظرة السلبية الخالصة عن انصهار الأفاق إلى المماهاة بين الفهم ونمط المعرفة المنهجية المستقلة تماماً عن موضوعها، أي المعرفة التي تتأسس على الفصل التام بين الذات وموضوعها. إن الأمر يتعلق بتصور صارم عن الفهم يغرف من أنموذج العلوم الدقيقة والمنهجية، وهو تصور لا يفي بمطالب المعنى الحقيقي للفهم والحقيقة التي يمتلكها. وفي المقابل تُنقب تأويلية "غادامير" عن معنى جديد وايجابي لانصهار الآفاق، لكن دون أن تتناسى معناه السِّلبي الذي أضحى كظل ملازم لا يفارق الانصهار الايجابي للآفاق[11].

ثانياً- انصهار الفهم بين الحدث والسيطرة، أي مفارقة؟

صحيح أن "غادامير" لم يتحدث بشكل مباشر عن انصهار الآفاق في فينومينولوجيا الخبرة الجمالية (الجزء الأول من الكتاب)، ومع ذلك فإن دروسه في الجزء الثاني التي كرسها للفهم والعلوم الإنسانية هي التي تسمح لنا بفهم الدلالة الحقيقة لانصهار الآفاق. فانصهار الآفاق يحدث عندما يصير الفهم تجربة بالحقيقة، بمعنى لحظة ما يتخذ صورة لقاء ترنسندنتالي بما هو جوهري، يصحبه مذاك شكل من التحول، على أن لا نفهم هذا التّحول كنوع من **"التّعالي"** **"Transcendance"** يعكس نمطاً من **""الاتحاد الصوفي"** **"Union mystique"** على طريقة" شلايرماخر" و"دلتاي". إن كل ترجمة ناجحة لنصّ ما أو قصيدة شعرية أو عمل أدبي هي أيضاً المنتوج الفعلي لانصهار موفق للآفاق: ذلك أننا ننجح في نقل تجربة أو معقولية مخصوصة بفضاء آخر إلى فضائنا أو لغتنا الخاصّة. إن المترجم يسعى باستمرار إلى القبض على معنى اللّغة الأجنبية، لكن لا يتسنى له ذلك إلاَّ انطلاقاً مما تتيحه لغته الخاصَّة، بأن يجعل معنى الآخر أو الماضي يتردد صداه في لغته الخاصّة، أي في الحاضر[12].

تأسيساً على ذلك ينتهي "غادامير" إلى أن كل فهم جدير بهذا الاسم يتضمن دائماً انصهاراً للآفاق. ويُلحُّ كثيراً على هذه الفكرة لمواجهة مزاعم النَّزعة الموضوعية التي تدعي بضرورة أن ننقل أنفسنا، عندما نريد أن نفهم الماضي، إلى أفق مختلف تماماً عن أفقنا. إن الفهم، وهذه عبارة "غادامير"، ليس انتقالاً **"نفسياً"** أو **"تكهنياً"**

"**Transport psychique**" إلى عالم منفصل كلياً عن عالمنا. ويُبصر "غادامير" في هذا التَّوجه نحو الفهم كأنموذج موضوعي يتصور الفهم في مقابل موضوعه. إذ ليس من الممكن، بل ليس من المستحب، أن نغادر الذات نهائيا حتى نفهم، إن الفهم، هو بالأحرى، اندماج في لعب ما يُقال، في داخل ما هو متاح للفهم، أين يتجلى الفهم كجواب عن سؤال يطرحه النص. إن الأمر يرتبط هنا بجواب يتناسى ذاته، بمعنى جواب لا يعي ذاته أنه كذلك، أي بوصفه جواباً. إن الفهم شيء يحدث لنا، شيء ينتج، شيء ما لديه طابع الحدث. وهذا ما دفع "غادامير" الأخير سنة 1999م، إلى القول أن الفهم يعني "أنني لا استطيع أن أفسر ما يحدث لي". وما يريد أن يقوله هنا أننا مأخوذون إلى النخاع داخل انصهار الآفاق، حتى أننا نكون في وضع نعجز عن شرح ما يحدث لنا عندما نفهم، لأن المعنى يفاجئنا ويدهشنا. فعبارة انصهار الآفاق تصدق هنا على فكرة الحدث المفاجئ الذي يسرنا، و"غادامير" يُحبذ كثيرا الحديث في هذا المقام عن الحدوث، أي الحدث الذي ينتج داخل معجزة الفهم. وهذا الطابع الحدثي هو اللّحظة الأكثر أهمية داخل فكرة انصهار الآفاق، ونحن نعلم اليوم أن العنوان الأول الذي اختاره "غادامير" لكتابه هو **"الفهم والحدث" " Compréhension et événement" "Verstehen und Geschehen"**، وقداستخدمهللدلالة أوَّلاً: على هذه المعجزة أو اللّغز، أي الفهم، وكيما يحفظ له، ثانياً، طابعه الحدثي الذي نعمل غالباً على حجبه داخل مجال التّأويلية المنهجية أين أُستكنه الفهم كنشاط معرفي يتأثل على مناهج قابلة للتحقق.

ينبغي أن نُذكر، ونحن بصدد الحديث عن انصهار الآفاق كحدث، أن العبارة تتخذ صورة **"جدل السُّؤال والجواب " Dialectique question - response"**. وهذه الحقيقة يُطالعنا بها "غادامير" في قوله: "إن بداية التأويل هي، في الحقيقة، إجابة، وككل إجابة، فإن معنى التأويل يتحدد من قبل السؤال المطروح، فجدل السؤال والجواب يسبق، كنتيجة لذلك، جدل التأويل، وهو الذي يحدد الفهم بوصفه حدثا"[13]. يفهم "غادامير" عملية الانصهار كإلزام يفرضه التراث على المؤول، وعلينا أن نعترف بهذا التراث، لا بمعنى الاعتراف بآخرية الماضي ولكن الاعتراف بأن لديه شيئاً ما ليقوله لنا، على نحو يتخذ هذا الإلزام صورة سؤال. وهذا ما يدعوه "غادامير"، كما ألمحنا، بـ**"منطق السؤال والجواب" " la logique question- response** " الذي يحكم عملية التأويل والفهم قاطبة، فبمجرد أن يصير أي نص تراثي موضوعاً للتأويل،فمؤدى ذلك أنه يطرح على المُؤَوِل سؤالاً، لأن فهم النّص هو فهم هذا السؤال[14]. على هذا ينبغي أن نفهم النص كإجابة عن سؤال، وكيما نحيط بهذا السؤال وجب أن نستمع إلى ما يقوله النّص أن نُعيد صياغة السؤال انطلاقا من الجواب المتمفصل داخله. بيد أن الجواب ذاته لا يمكن القبض عليه أو تملّكه إلا بالولوج إلى أفق النّص، ولا يتسنى ذلك إلاَّ بإسقاط سؤال مسبق هو الانجاز الحقيقي للمؤول. وعليه يمكن أن نميِّز بين سؤالين يُحركان فعل الفهم والتأويل: سؤال يأتي النّص كجواب عنه، وهو سؤال لا يمكن بلوغه وامتلاكه إلا داخل السؤال الذي يطرحه المؤول على النص؛ إننا مطالبون حين نريد فهم نص ما أن نرفع المساءلة إلى ما وراء ما يقال، فعلينا أن

نفهمه كإجابة عن سؤال. لكن وبمجرد أن نرتفع إلى ما وراء ما يقال، فإننا نذهب حتما، من خلال السؤال الذي نطرحه، إلى ما وراء ما يقال. فلا يمكننا أن نفهم المعنى الخاص بالنص إلا إذا اجترحنا أفق السؤال الذي يحوي ضرورة إجابات أخرى ممكنة. فمعنى جملة ما هو معنى مرتبط بالسؤال التي كانت إجابة عنه. ومؤدى ذلك أن معناه يتجاوز ضرورة ما يقال فيها[15].

إلى هذا لا يطرح مصطلح انصهار الآفاق أية مشكلة. لكن بمجرد أن بدأ "غادامير" الحديث في مقطع غريب عن فكرة **"السّيطرة"** على هذا الانصهار أو **"الانصهار الموجّه"** **"Fusion Contrôlée"** حتى تتفاقم مظاهر التّعارض والمفارقة[16]. فهل يمكننا أن نُسيطر فعلاً على هذا الحدث؟ وهل يبقى هذا الحدث حدثاً إذا كان محصلة لعملية توجيه وسيطرة؟ وهل العبارة الملائمة هنا هي الحدث أم السّيطرة؟

لا يحتاج المرء لأن يكون عارفاً متخصصاً في "غادامير" كيما يُدرك أن فكرة **"السّيطرة"** ليست من المصطلحات المحبذة في معجميته، لأنها ترتبط في جانب كبير منها بفكرة المنهج التي يقف "غادامير" على مبعدة منها ويُنافحها. وهذا ما يدفعنا إلى التّساؤل: لماذا يتحدث "غادامير" عن انصهار مُوجَّه (مسيطر) بينما تهدف كل تأويليته إلى التّقليل من فكرة السيطرة؟ يأتي توظيف "غادامير" لكلمة سيطرة، برأي "غراندان"، من أجل الاعتراف بالموقف الموضوعي المميز للفهم العلمي المتعلق بالعلوم الإنسانية، حيث يتوجب على المؤول أن يُمهد لفكرة أفق النص الذي يؤوله، فداخل هذا الموقف الخاص من الضروري أن نُميز بين أفق الماضي والحاضر. بيد أن "غادامير" لا يقف عند هذا الحد بل النتيجة التي انتهى إليها في تحليله أن هذا التّمييز ذاته مآله التَّلاشي والاختفاء، لأن أفق الماضي لا يمكن أن يُفهم إلاَّ بلغة الحاضر وداخلها: ينبغي أن يكون لدينا دائماً أفق كيما نتمكن من نقل أنفسنا داخل أفق الماضي[17]. فانصهار الأفاق مفهوم يسري داخل مستويات أو طبقات مركبة ومتدرجة منصهرة الواحدة مع الأخرى: فهناك أولاً مستوى اللّغة التي نستخدمها، والذي هو في الوقت نفسه مستوى مخصوص بالحاضر -لأننا لا نفهم إلا بلغة اليوم- ومستوى آخر يأتي من الماضي. إذ لا يسعنا الحديث عن الماضي دون أن نستعين بمعجمية الحاضر، وإذا كنا نفهم الماضي في الحاضر فإن هذا الفهم لا يكتمل إلا من خلال المعنى الذي اتخذه الماضي تحت تأثير نشاط التاريخ. فعندما نؤول أفلاطون فنحن ننجزه بمعونة المعجمية الأفلاطونية التي مرَّت بأرسطو والأفلاطونية الجديدة والعلم الحديث وتأويلاتنا المعاصرة[18].

هكذا ففي كل فهم يتداخل الماضي والحاضر، ونشاط التاريخ الّذي يصهرهما في وحدة واحدة، انصهاراً ناجحاً على نحو يتعذر علينا أن نلاحظ أنه كذلك؛ فكل تأويل (أو ترجمة) ناجح للماضي يؤدي مهمته على أكمل وجه بحيث لا نشعر أننا أمام تأويلات (أو ترجمة)، لكن نشعر كما لو أننا في مواجهة الشّيء ذاته. وعليه فإن معيار التّأويل الصّحيح ألاَّ ينكشف كذلك، أي بوصفه تأويلاً بما أنه ينصهر مع الشيء ذاته. ومن ثم فإن الإسقاط النّاجح للأفق هو الإسقاط الذي لا ينكشف على حقيقته.

لنعد الآن إلى المعضلة الأساس التي أثرناها سابقاً، هل يُمكننا السيطرة دائماً على هذا الانصهار الذي ينتج داخل الفهم؟ كنا قد بينا أعلاه أن هذا السؤال إذا كان قابلاً للُطرح فلأن "غادامير" يقبل في الوقت نفسه، ضرورة التّمييز بين أفقي الماضي والحاضر ومن ثم السيطرة عليهما من جهة، ومن جهة ثانية، وبما أنهما ينصهران فلا يُمكن إذن السيطرة عليهما نهائياً. لذا فإن النّص يتضمن نوعاً من التوتر، دفع "غادامير" إلى تعديله في الطبعة الأخيرة من **"الحقيقة والمنهج"** التي ظهرت ضمن الأعمال الكاملة سنة 1986م، تعديلاً طفيفاً يستبدل عبارة **"مهمة" "Tâche"** بعبارة **"يقظة" "Vigilance"**. حيث نقرأ النّص الأصلي قبل تعديله: "إن الممارسة الموجهة لانصهار الآفاق هي المهمة التي نعزوها إلى الوعي بنشاط التاريخ". أما نص 1986م المعدل فيقول:" إن الممارسة الموجهة لانصهار الآفاق هي يقظة الوعي بنشاط التاريخ". لكن كيف نفهم هذا الانتقال من **"المهمة"** إلى **"اليقظة"** ؟، من **"L'aufgabe"** إلى **"Wachheit"**؟ إنه سؤال خطير، كما يذكر "غراندان"، لكنه يوحي بمقاصد "غادامير"، فقد كان غرضه أن يقلِّص من الطابع الموضوعاتي في نصه الأصلي المثير للجدل. ومع ذلك ينبغي ملاحظة أن "غادامير" لم يعدِّل في الجزء الأوَّل من العبارة الّتي تتحدث عن "الممارسة الموجهة لانصهار الآفاق"، لأن هذه الممارسة تبقى صالحة على نحو شامل، ولكنها تتطلب في المقابل **"يقظة"** لا **"مهمة"**؛ فنجاحها ليس أمراً أكيداً، لأن هنالك دائماً جانباً من المخاطرة الذاتية في كل فهم، فقد نتخذ كل احتياطاتنا ومع ذلك لن نكون في مأمن تام عن الانصهار السَّيئ للآفاق[19].

ثالثاً- البعد اللّغوي لانصهار الآفاق، أو انصهار اللّغة:

بعد أن فرغنا من استيضاح أبعاد أطروحة "غادامير" الأولى عن انصهار الآفاق (انصهار الفهم) نأتي إلى تحليل أطروحته الثانية، وهي دون شك الأطروحة الأهم في **"الحقيقة والمنهج"** عن انصهار الآفاق، ومؤداها أن هذا الانصهار لا يتحقق إلا داخل اللّغة وبواسطتها. وقد استثارها "غادامير"، كما ألمحنا، في نهاية الفصل الثاني من كتابه حين أكَّد أن الأمر يتعلق هنا بمفتاح يقود كل تحليله اللاّحق في الجزء الأخير: "إن الفكرة الرئيسة للمناقشة الآتية أن انصهار الآفاق الذي يحدث في الفهم هو الانجاز الخاص باللّغة"[20]. وهذا نص على درجة قصوى من الأهمية بما أنه يرتبط أساساً بفكرة رئيسة تسبق كل **"L'Erörterung"** مُكرَّس للّغة. لكن يضيف "غادامير" في نص آخر: "إن السؤل حول معرفة ما هي اللّغة يشكل جزءا من التساؤلات الأكثر غموضاً وإبهاماً بالنسبة للتأمل الإنساني. إن العنصر اللّغوي هو العنصر الأقرب الذي يشغل تفكيرنا أكثر لأنه لا يملك إلاَّ النزر القليل عن وضع الموضوع على نحو يمكننا من القول أنه [أي العنصر اللّغوي] يتخفى، أثناء نشاطه، عن ذاته ووجوده الفعلي "[21].

بوسعنا أن نقرأ بين سطور هذا النّص شيئاً حاسماً في تأويلية "غادامير": لا شيء أكثر حميمية بالنسبة للفكر من اللّغة، وفي الوقت نفسه، لا شيء غريب بإزائه أكثر منها. ومبرر هذه الغرابة أن اللّغة تُخفي ذاتها وتطمس نطاقها الخاص عبر إظهار

الأشياء التي تُعبر عنها وتُشير إليها، فاللّغة تحجب وجودها الفعلي عن ذاتها، وهذا مصطلح "هيدغري" بامتياز؛ لأن فكرة التّحجب الذاتي تُشكل جزءا لا يتجزأ من ماهية الحقيقة. وعليه فانصهار الآفاق الذي يكتمل داخل اللّغة يتخفى عن ذاته بالقدر نفسه الذي يتخفى انصهار الفهم عن ذاته عندما يحدث.

وبهذا الاعتبار، هل من المستساغ الحديث عن انصهار للآفاق داخل اللّغة إذا كانت تُخفي ذاتها وتطمس نطاقها الخاصّ على نحو جوهري؟ بل الأدهش أن "غادامير" لا يتحدث عن الأمر بشكل صريح، وهو الذي أعلن أن هذه الفكرة هي المفتاح الذي سيقود تحليله للّغة، فالأمر لم يعد يتعلق مباشرة بانصهار الآفاق في مقاربته للّغة، حتى إذا كان من الصواب القول أنها تُوجِّه جلّ فكره في الجزء الثّالث من الكتاب.

لعل هذه سِمَةٌ يختص بها انصهار الآفاق في اللّغة؛ إذ يشتمل على أبعاد مختلفة أو جوانب عديدة متماسكة، ينبغي أن نحيط بها كيما نقف على فكر "غادامير" حول اللّغة، وكيما نقف على الدّور الذي يعزوه لفكرة الانصهار:

أولاً: إن الجانب الأوَّل، أو بالأحرى النَّمط الأوَّل من انصهار الآفاق الذي يحدث داخل اللّغة هو انصهار **الفكر "Pensée"واللّغة "Langage":** فالفكر موصول بالغة على نحو يتعذر التمييز بينهما، أي بين الفكر واكتماله اللّغوي. فلا وجود لعالم مستقل ينأى بنفسه عن الفكر، ومن ثم، وكدرجة ثانية، دون وسيط لساني يتيح إمكان توصيله في هذه اللغة أو تلك. إن التفكير، في نظر "غادامير"، هو دائماً عملية لغوية أو منظوم داخل لغة ممكنة، وهذا معنى مقولة "أفلاطون" التي يذكر فيها أن "الفكر هو حوار الروح مع ذاتها"[22].

ثانياً: إن النّمط الثاني لانصهار الآفاق الذي يكتمل داخل اللّغة هو ذلك الانصهار الذي يحدث بين اللغة والأشياء. فبرأي "غادامير" لا يسعنا التّفكير ولا حتى الفهم دون لغة فحسب بل أيضاً لا وجود للأشياء من دون لغة. هذا هو معنى أطروحته الشهيرة التي تبعاً لها يعد "الوجود الوحيد الذي يمكن فهمه هو اللّغة"[23].

لننظر الآن ماذا تعني موضوعة انصهار اللّغة والأشياء. بوسعنا أن نُدرك داخل هذه الأطروحة أن العالم لا يوجد أو لا يحضر أمامنا إلا داخل اللّغة، ومؤدى هذه العبارة أن اللّغة ليست شيئاً مكملاً ينضاف إلى خبرة أصلية بالعالم بوصفها تجربة أوَّلية خالصة غير لغوية، بل في اللّغة ومن خلالها يتسنى للإنسان أن يمتلك عالماً، فمن خلالها يُمكن للعالم أن يحضر بالنسبة إلينا كعالم، أي كعالم موجود مسبقاً ضمن أفق من الألفة لا يغرف عن الفهم فحسب وإنما من الوجود ذاته. إن الفكرة التي نادراً ما فهمت بشكل جيِّد، والتي شكلت برأي "عراندان"، النتيجة الفعلية لـ**"الحقيقة والمنهج"**، أن اللّغة ليست لغة الفهم فقط بل أيضاً لغة الوجود ذاته، وبعبارة أخرى، لغة الأشياء ذاتها، التي أطلق عليها "غادامير" بمعنى الإضافة الذاتية، اسم **"لغة الأشياء" "Langue des Choses" "Die Sprache Der Dinge"**. إن اللّغة، هي أوَّلاً وقبل كل شيء لغة الأشياء لأننا نحن الذين نتحدث بهذه الطريقة، ولكننا لا نتحدث بهذه

الكيفية إلا لأن ثمة رابطة جوهرية بين الوجود واللّغة. وكيما نتفكر جيداً هذه الرَّابطة، يتوسل "غادامير" في الجزء الثالث من كتابه بـ**"الميتافيزيقا الوسيطية" "Métaphysique Médiévale"** ومذهبها عن **"التّعالي"**. ومبرر هذا الاستمداد قدرة هذه الميتافيزيقا على فهم الرَّابطة الحميمة بين الوجود واللّغة، إذ لم تر فيهما مجرد معنيان متعارضان أو شيئان متقابلان بل رابطة عميقة.

إن ما يَهُم "غادامير"في هذا السياق أن نور اللّغة هو نور الوجود ذاته، فإذا افترضنا أن ماهية الإنسان كونه "حيوانا عاقلاً"، فمن الواضح، للوهلة الأولى، أن الأمر يتعلق ههنا بنظرة مخصوصة إلى اللغة والفكر. إلا أن ما هو مستهدف من ورائها هو شيء أكبر، وما نفهمه من كلمة شيء أكبر من اللغة أو أي مشروع فهم، هو الوجود ذاته الذي يصاغ؛ إنه وجود الإنسان ذاته الّذي ينبغي أن يتجلى داخل هذا الوصف. لكن ماهية الإنسان هي أيضا ما يُمكنني من القول أن مفهوم "الوجود العاقل" ليس المفهوم الأكثر مواءمة أو المفهوم المناسب أكثر لماهية الإنسان. فثمة أيضاً أوجه أخرى تحدد ماهيته: فهو كائن ضاحك، كائن يقاتل أقرانه، والكائن الوحيد الذي يضع حدا لحياته. والسّؤال الّذي يطرح نفسه هنا، ما الذي يسمح لنا القول أن ماهية شيء ما هي كذا أو كذا؟ يُجيب "غادامير" قائلا: الأشياء ذاتها ولغتها هي ما يتيح لنا الحديث أن ماهية الشيء هي كذا وكذا، لأنها تنكشف أمامنا في اللغة وداخلاها، داخل تلك الرابطة التي تجمعنا منذ الأزل، نحن والعالم[24].

يضرب "غراندان" مثالاً آخر عن "لغة الأشياء". من المعروف أن محاولات علم الوراثة الحديث تتلخص في توضيح ما ندعوه بـ**"الجينوم الإنساني" " génome humain"**، الذي يُلخص بمعنى ما **"شفرتنا الوراثية""code génétique"**. بلا شك يُعدّ هذا تفسيراً علمياً قابلاً للتكذيب، وكمحصلة لذلك يُعدّ نظرة خالصة للمعقولية الإنسانية حول جيناتنا، لأننا سنتحدث، دون شك، بكيفية مختلفة تماماً بعد مائة سنة. ومع ذلك فالأمر لا يتعلق هنا بمجرد "إبداع" أو "اختراع" بسيط من صنع الذكاء الإنساني. وهذا أمر يحتاج إلى شيء من التفصيل؛ إن شفرة الأنموذج الوراثي ذاتها، أي شفرة الأشياء ذاتها، التي يبحث العالم عن التعبير عليها باستخدام اللغة. فالعلم، ككل فهم إنساني، يبحث عن صياغة لغة هي قبل كل شيء لغة الأشياء ذاتها. وهذه اللغة، أي لغة الأشياء، هي التي تتيح، إلى جانب ذلك، تقييم منجزاتنا أو إلغائها و رفضها، على أساس أن هذا الشيء أو ذاك ليس ملائما لما تقوله الأشياء أو التجربة. هكذا إذن، ثمة لغة للأشياء أو لغة الوجود نقصدها ونتوجه نحوها لحظة ما نريد أن نفهم أو نخترق المعنى. لعلنا ندرك الآن معنى أطروحة "غادامير": "الوجود الوحيد الذي يمكن فهمه هو اللغة"، فغالباً ما أكتنهت هذه الحكمة بمعنى نزعة لغوية نسبية، فقد تأوَّلها كل من "ر. رورتي" "R. Rorty" و"ج. فاتيمو" "J. Vattimo" بهذا المعنى. لكننا نفترض مع "غادامير" العكس، إذ لم يكن غرضه اختزال الوجود داخل لغة عصر معطى (كما تدعي النزعة النسبية)، بل رفع لغة عصر ما إلى لغة الأشياء ذاتها، فبالنسبة لـ"غادامير" تعد اللغة أولا وقبل كل شيء لغة الأشياء[25].

هذا هو المعنى الحقيقي والعميق لأطروحة انصهار الآفاق لدى فيلسوف هيدلبرغ: فانصهار الآفاق لا يختزل إلى انصهار الفكر واللّغة، بل ثمة انصهار من نمط آخر أكثر أصالة، هو انصهار الوجود واللّغة. ونحن بمنأى عن إدراكه إلاّ إذا التحم هذان النوعان داخل انصهار ثالث، أعني، انصهار الأشياء والفكر واللّغة.

وخلاصة القول في هرمنيوطيقا انصهار الآفاق، يُعدّ مفهوم انصهار الآفاق التّعبير "الغادامير" عمّا يُسمى في التّعريف الكلاسيكي للحقيقة، داخل التّراث الفلسفي، بـ**"تطابق الفكر مع الواقع" "l'adaequatio rei et intellectus"**. فداخل معجمية "غادامير" تصير **"res" "انصهار الشيء"**، ويصير "الفهم" تبعاً لذلك المكافئ للجذر اللاتيني **"intellectus"**. أمَّا الفرق الوحيد بينهما، فلّما يتحدث "غادامير" عن**"تطابق" "Adéquation"** بل يتحدث غالباً عن **"انصهار" "Fusion"**. وهو اختلاف دقيق لا يرتبط عند "غادامير" بقياس أو تقدير مدى تطابق الفهم مع وجود منفصل عنه، ولكن يُعبر عن حقيقة عريقة من قبيل تطابق الفكر والشيء - هذه الحقيقة الأصلية الّتي تجعل تطابق الفكر والشيء أمراً ممكناً، هي حقيقة اللّغة ذاتها الّتي يدعوها غالبا بـ"حقيقة الكلمة"- في قدرتها الفائقة على كشف الأشياء ذاتها، وبهذا المعنى أُكتنهت هرمنيوطيقا انصهار الآفاق كفينومينولوجيا، أي كانكشاف للأشياء كما تُعطى لنا.

الهوامش

(1)- Gadamer. Hans- George : vérité et méthode : les grandes lignes d'une herméneutique philosophique, traduit de l'allemand par Pierre Fruchon, Jean Grondin et Gilber Merlio, Éditions du Seuil, Paris, 1996, p. 329.

(2)- Ibid, p.401.

(3)- Jean Grondin : La fusion des horizons, La version gadamérienne de l'adaequatio rei et intellectus in http : // www. Archivedephilo.(18/11/2008)

(4)- Jean. Grondin : Introduction à Hans Georg Gadamer, Édition du cerf, paris, 1999, p. 144.

(5)- Pol. Vandevelde : L'interprétation comme acte de conscience et comme événement. Une critique de Gadamer, in Littérature et Savoirs, Publication des Facultés Universitaires Saint- Louis, Bruxelles, p. 43.

(6)- Ibidem.

(7)- Jean Grondin : La fusion des horizons, La version gadamérienne de l'adaequatio rei et intellectus , op. Cit.

(8)- Ibid.

(9)- Hans- George. Gadamer : vérité et méthode, op. cit, p. 327.

(10)Jean Grondin : La fusion des horizons, La version gadamérienne de l'adaequatio rei et intellectus , op. Cit.

(11)- Ibid.

(12)- Ibid.

(13)- Hans- George. Gadamer : vérité et méthode, op. cit, p. 497- 498.
(14)- Pol. Vandevelde : L'interprétation comme acte de conscience et comme événement. Une critique de Gadamer, in Littérature et Savoirs, op. cit, p. 46.
(15)- Ibid, p. 46- 47.
(16) يقول "غادامير":
"Nous définissons la réalisation contrôlée d'une telle fusion comme une tâche de la conscience propre à l'histoire de l'influence ".
"نحن نُعرِّف انجاز مثل هذا الانصهار الموجه كمهمة مخصوصة بالوعي بنشاط التاريخ".
- Hans- George. Gadamer : vérité et méthode, op. cit, p. 328.
(17)- Ibid, p. 326.
(18)- Jean Grondin : La fusion des horizons, La version gadamérienne de l'adaequatio rei et intellectus , op. Cit.
(19)- Ibid.
(20)- Hans- George. Gadamer : vérité et méthode, op. cit, p. 401.
(21)- Hans- George. Gadamer : Heidegger et le langage, in l'Herméneutique en Rétrospective, Traduit par Jean Grondin, Vrin, Paris, 2005. p. 43.
(22)- Jean Grondin : La fusion des horizons, La version gadamérienne de l'adaequatio rei et intellectus , op. Cit.
(23)- Ibid.
(24)- Ibid.
(25)- Ibid.